مدن المغرب القديم بين الاندراس والاستمرارية
(ما بين القرنين 1ه/7م و5ه/11م)

الدكتور مصطفى عرباوي
المغرب

الملخص:

تشكل المدينة بوتقة التحولات العمرانية والحضارية، وهذا ما يمكن ملامسته من خلال تتبع تطور المجال الحضري في المغرب بعد الفتح الإسلامي، خاصة على مستوى الوقوف على مصير الشبكة الحضرية الموروثة عن العصر القديم، التي يتبين من خلال البحث التاريخي أن عددا منها استمر عمرانه في بداية العهد الإسلامي لسلامة بنيانها وميزة موقعها، ومنها ما أصابه الخراب والاندراس بسبب هشاشة بنيانها وهجران سكانها، فمدينة طنجة التي ذكرت في كل الحقب التاريخية القديمة سرعان ما استوت تحت الأرض، وبنيت فوقها مدينة جديدة رغم أنها كانت قائمة العمران زمن بداية الفتوحات الإسلامية، وبالمقابل هناك مدن تمت إعادة تخطيطها بما ينسجم مع التوجهات والتوجيهات الجديدة مثل مدينة سبتة ومدينة تشمس التي كانت تسمى قديما بلكسوس، ويظهر من خلال المصادر التاريخية أن اندراس المدن وخرابها في المغرب الأقصى لم يتم بمرجعية دينية أو سياسية بقدر ما كان نتيجة لدورة العمران الحضري، فما أن تفقد المدينة شروط وجودها حتى يهجرها سكانها فتدخل مرحلة الترهل المعماري إلى أن تصبح أطلالا وخرايب.

الكلمات المفتاحية: المدينة، المدن المندرسة، المجال الحضري، التخطيط الحضري، العمران، المدينة الأزلية، المعمار الحضري، المغرب الوسيط، الفتح الإسلامي.

شهد المغرب الأقصى خلال الفترة الممتدة من نهاية القرن الأول الهجري/7م إلى منتصف القرن الخامس الهجري/11م تحولات كبرى شملت المجال والمجتمع في جميع أبعاد العمران الإنساني، وذلك ارتباطا بالثقافة الجديدة التي تشكلت في إطار التفاعل بين الخريطة البشرية المحلية والدين الإسلامي الذي عمّ جُل شمال إفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيرية، ونحن نصف هذه الفترة بالنسبة للمغرب الأقصى بفترة المخاض؛ انطلاقا من اعتبارات تاريخية وسياسية واجتماعية ومعمارية، ومن ذلك أن المجال الحضري في المغرب بدأ يشهد ملامح عمرانية جديدة سواء على مستوى المعمار أو على مستوى الحياة الحضرية. ومن المعلوم تاريخيا أن المغرب عرف دينامية حضرية منذ عهود ضاربة في القدم؛ إذ ظهرت مجموعة من المدن سواء على مستوى الشريط الساحلي أو في المناطق الداخلية، تم تخطيطها بناء على الخبرة المحلية التراكمية والمؤثرات المتوسطية التي دخلت سلما كما هو الحال مع الفنيقيين والقرطاجيين أو استعمارا وقوة كما هو الحال في عهد الاستعمار الروماني، والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح يتمثل في مصير الشبكة الحضرية الموروثة عن العهد القديم بعد الفتح الإسلامي، خاصة وأن المسألة تتعلق بانتشار دين جديد وما صاحبه من تغير في البنى السياسية والاجتماعية والثقافية.

وهو الأمر الذي سنعمل على مقاربته تاريخيا في هذه المقالة، وذلك بإعطاء صورة لمظاهر التحولات العمرانية للمجال الحضري من خلال الوقوف على مصير الشبكة الحضرية القديمة خلال القرون الخمسة الأولى لانتشار الإسلام، معتمدين في ذلك على مسح ببليوغرافي للمصار التاريخية الوسيطة، وترتيبها زمنيا؛ حتى يتسنى لنا متابعة التحولات العمرانية لما يسمى في الأدبيات التاريخية بالمدينة القديمة أو المدينة الأزلية.

1-الإرث الحضري في سياقه التاريخي:

من المعلوم تاريخيا أن المغرب القديم تعرض للاستعمار الروماني مع بداية القرن الأول الميلادي، غير أن هجمات قبائل أوروبا الشمالية على تراب الإمبراطورية الرومانية أضعفتها عسكريا وسياسيا، الأمر الذي أدى إلى جلائها عن مدن المغرب القديم ابتداء من القرن الثالث الميلادي، خاصة مع اشتداد المقاومة الأمازيغية، باستثناء مدينتي سلا وموكادور لدورهما الاستراتيجي في التجارة الأطلنتية، حيث تأخر الجلاء النهائي عنهما إلى حدود الثلث الأول من القرن الخامس الميلادي[1].

وقد أدى جلاء الرومان عن المغرب القديم، وعدم وجود قوة سياسية بإمكانها الحفاظ على وحدة البلاد، إلى وقوع اضطرابات وفتن عظيمة أثرت على المجال الحضري، حيث سادت الفوضى المعمارية والتخريب وأعمال العنف...، ففي مدينة وليلي مثلا: شهدت فوضى معمارية تمثلت في تغير استعمالات المباني والسطو عليها واحتلال الطرق لاستعمالها للسكن، وذلك بسبب غياب السلطة البلدية التي كانت في الفترة الرومانية تشرف على تنظيم المدينة[2]، والأمر نفسه شهدته طنجة التي تراجع عمرانها خلال القرن الثالث الميلادي، نتيجة للتطورات السياسية التي شهدتها روما خلال هذه الفترة[3].

خريطة المراكز الحضرية والعسكرية الرومانية بالمغرب القديم

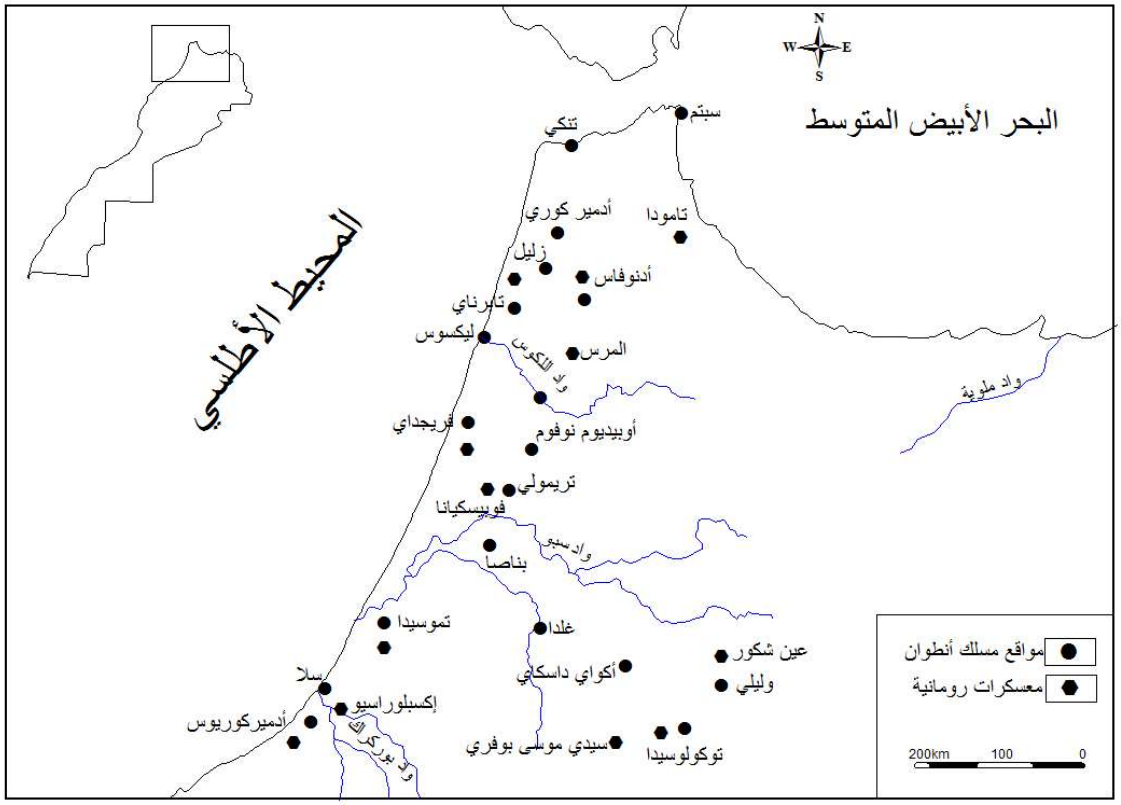

المصدر: من كتاب تاريخ المغرب: تحيين وتركيب [بتصرف]

في خضم هذه الوضعية السياسية المضطربة، تعرض المغرب القديم لهجوم "الوندال" قادمين إليه من "جرمانيا"، فقد كانت الظروف المضطربة، وحركات التمرد التي عرفها حكم الرومان في المغرب، من أهم الأسباب التي أغرت "الوندال" بغزوه، حيث "عبروا مضيق جبل طارق في صيف سنة 429م بقيادة ملكهم جنسريق، الذي كان صدى قوته (...) يبعث الهلع في كل مناطق نفوذ الإمبراطورية الرومانية، بل إن روما نفسها استسلمت لجيوشه سنة 455م"[4].

وقد اتسم الوجود الوندالي في شمال موريطانيا الطنجية بالتخريب والتدمير، إذ تعرضت مدينة **زليل** لدمار كامل، كما تشهد على ذلك المستويات الأثرية التي عثر عليها بهذا الموقع[5]، إضافة إلى مدينة **سبتة** التي عرفت في عهدهم أعمال تخريب واضحة[6].

لقد استطاع البيزنطيون إخراج الوندال من شمال إفريقيا سنة 533م، غير أن فترتهم التي سبقت الفتح الإسلامي تعتبر من أكثر الفترات غموضا في التاريخ المغربي، وكل ما هو معروف من خلال الآثار الباقية أن البيزنطيين منذ القرن السادس كانوا قد احتلوا مدينة **سبتة**، واتخذوا منها مركزا لمراقبة الشواطئ المقابلة، وأنه ظل للرومان بعض النفوذ الديني واللغوي[7]، ومنه فإن تقييم التواجد البيزنطي بالمغرب القديم يفضي إلى القول بمحدودية تأثيره، حيث إن الأدوات واللقى الأثرية، لا ترقى لاستعمالها أدلة عن استعمار بيزنطي، بل باعتبارها مؤشرات عن انفتاح موريطانية على التيارات التجارية المتوسطية[8].

أما بخصوص النفوذ الديني واللغوي البيزنطي فقد أكدته الحفريات؛ إذ تم العثور بمدينة وليلي بجوار السور المتأخر وبالقرب من قوس النصر على مقبرة مسيحية تشمل ستة وستين قبرا، إضافة إلى نقائش مكتوبة باللاتينية، مما يدل على اعتناق بعض سكان وليلي للمسيحية، واستمرار تأثرهم باللاتينية رغم جلاء السلطة الرومانية عن وليلي لأكثر من ثلاثة قرون ونصف[9].

لقد دخلت موريطانيا خلال هذه الفترة مرحلة نهاية الدورة الحضارية، فمنذ منتصف القرن الخامس إلى مطلع القرن الثامن الميلاديين –أي قبل الفتح الإسلامي– تراجع الطابع المدني للمناطق التي كانت خاضعة للاحتلال الروماني، وانتشر الطابع البدوي في أرجاء المغرب الأقصى[10].

ويعود ذلك لسببين رئيسين:

- ❖ سيادة الفوضى، وغياب سلطة قادرة على ضبط المجال وتسييره، مما أدى إلى هروب الناس إلى البوادي وانخراطهم في القبيلة الأم باعتبارها وحدة أمنية دفاعية، وبالتالي فراغ المدن أو نقصان عدد ساكنتها، وهذا أمر غير مستغرب إذا ما علمنا بأن أساس وجود المدينة هو توفر السلطة الحامية لها، المدبرة لشؤونها.
- ❖ العامل الثاني يعود إلى أن الوندال والبيزنطيين لم يكن لهم مشروع حضاري استعماري كما كان الشأن بالنسبة للرومان، وهكذا نلاحظ أن العديد من مدن موريطانيا الطنجية اختفت إبان الغزو الوندالي والبيزنطي، ووقع تراجع كبير في رقعة الأراضي التي كان فيها التأثير المدني الروماني بارزا[11].

خريطة الشبكة الحضرية بالمغرب القديم

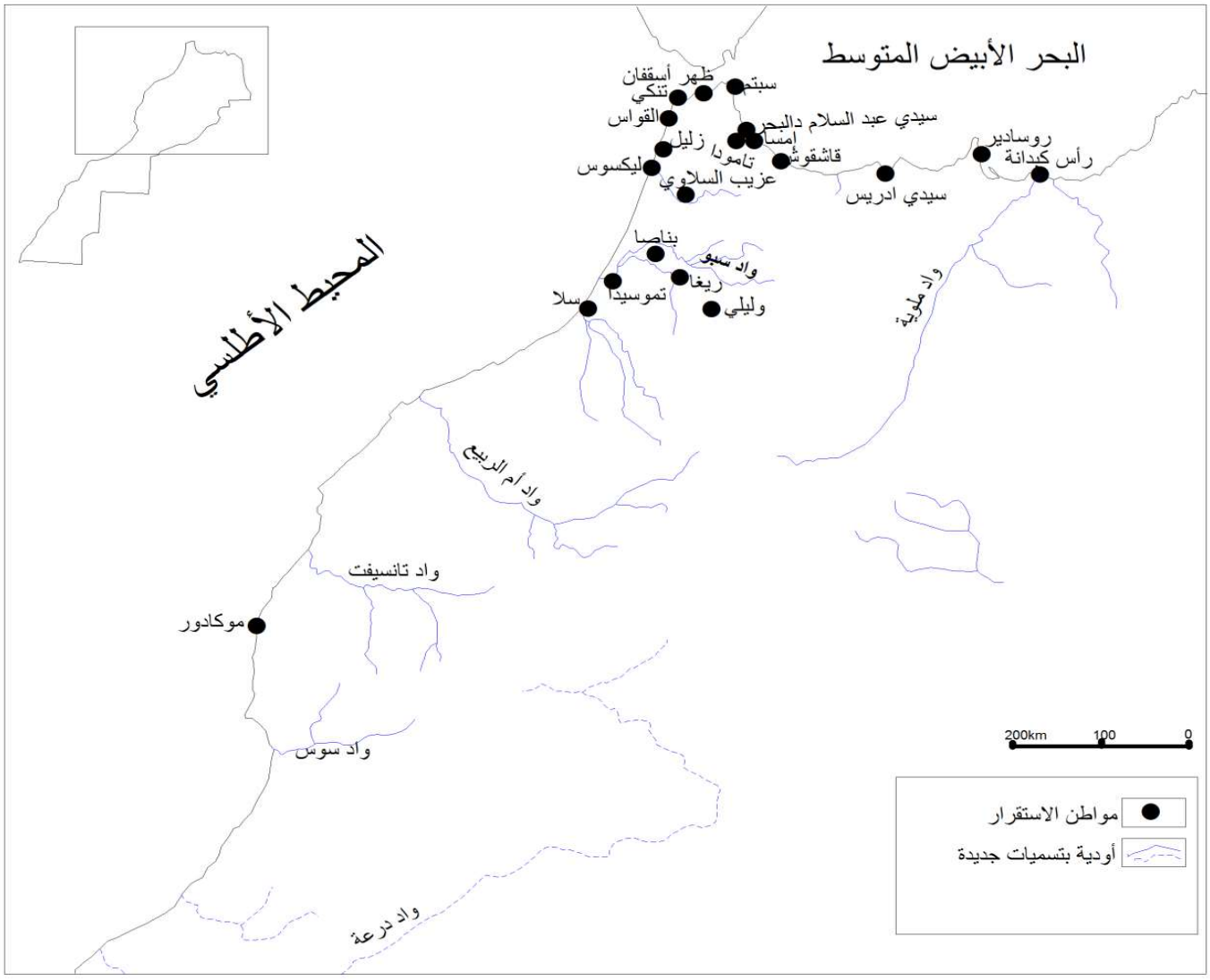

المصدر: من كتاب تاريخ المغرب: تحيين وتركيب [بتصرف]

ب- شبكة المدن الأزلية من خلال 2-المدن القديمة في المصادر الوسيطة:

استعملت كتب المسالك والممالك مفهومين للتفريق بين المدن الموروثة والمدن التي شيدها المسلمون، فالأولى أطلقوا عليها مصطلح المدينة الأزلية أو القديمة، والثانية أطلقوا عليها المدينة المحدثة؛ الأولى تعود إلى عهود تاريخية ضاربة في القدم، وتشكل نموذجا للحاضرة الموريطانية التي امتزجت فيها التأثيرات الحضارية المختلفة، والثانية تم إحداثها بعد الفتح الإسلامي في خضم التحولات التي شهدها المجال على المستوى السياسي والاقتصادي، وسنحاول في الجدول أسفله أن نتعرف على جل المدن الأزلية التي أسعفتنا النصوص التاريخية في رصدها والتعرف على وضعيتها المعمارية ومصيرها التاريخي.

المدينة الأزلية	موقعها	النص التاريخي
نكور	على الساحل المتوسطي	"مدينة بالمغرب بقرب مدينة مليلية، وهي مدينة كبيرة بينها وبين البحر عشرة أميال، وقيل خمسة (...) وهي قديمة أزلية افتتحها سعيد بن إدريس بن صالح الحميري أو بناها"[12].
مليلية	على الساحل المتوسطي	"مدينة مسورة بسور حجارة، وداخلها قصبة مانعة، وفيها مسجد جامع، وحمام، وأسواق، وهي مدينة قديمة، ويذكر أن بني البوري بن أبي العافية المكناسي جددوها، ويسكنها بنو ورتدي (...) وذكر محمد بن يوسف وغيره: أن عبد الرحمان الناصر لدين الله فتحها سنة 314هـ، وبنى سورها معقلا لموسى بن أبي العافية"[13].
تطوان	على الساحل المتوسطي	"ومدينة تطوان على رأس أسفل وادي رأس (...) والمسافة بين البحر وبينها عشرة أميال، وهي قاعدة بني سكين بها قصبة للأول، ومنار، وبها مياه كثيرة سابحة عليها الأرحاء، وبجوفيها جبل يعرف ببلاط الشوك"[14].
سبتة	على الساحل المتوسطي	"وهي مدينة قديمة سكنها الأول، وبها آثارهم بقايا كنايس، وحمامات، وماؤها مجلوب من نهر، ويأتي مع ضفة البحر القبلي في قنا إلى الكنيسة التي هي اليوم الجامع"[15].
طنجة	تقع في نقطة التقاء البحر المتوسط	"ومنها [سبتة] إلى طنجة، مدينة أزلية آثارها بينة، وابنيتها بالحجارة قائمة على وجه البحر، سكنها أهلها قديما سنين في صدر الإسلام، ثم استحدثوا لهم مدينة عن مسيرة ميل

	والمحيط الأطلسي	(حوالي 1600متر) منها على ظهر جبل، والذي أوجب استحداثها خوف آل إدريس عليها عند استحواذهم على سبتة في وقتهم (...) وليس عليها سور"[16].
		"ومدينة طنجة تعرف بالبربرية وليلى، افتتحها عقبة بن نافع، وقتل رجالها، وسبا من بها، وهي على شاطئ البحر المعروف بالزقاق مسورة متقنة البناء، وهي محط للسفن اللطاف؛ لأن الريح الشرقية توذي فيه، وهي طنجة البيضاء المذكورة في التواريخ وفيها آثار للأول كثيرة: قصور، واقباء، وغيران، وحمام، وماء مجلوب في قنا، ورخام كثيرة وصخر منجور، وتحتفر خرايبها فيوجد فيها أصناف الجواهر في قبور أولية وغيرها من المواضع، وهي آخر حدود إفريقية في الغرب (...) وقد غلب على مدينة طنجة القديمة الرمل، والعمارة اليوم فوقها، وهناك جامع حسن وسوق عامرة "[17].
تشمس (ليكسوس)	على الساحل الأطلسي في الشمال الغربي	"هي مدينة لطيفة قديمة أزلية أولية جاهلية، وعليها سور من البناء الأول"[18].
		"مدينة ميمون بن القاسم، وهي مدينة أولية عليها سور صخر، كبيرة آهلة كثيرة المياه والثمار، ويسمى ذلك الموضع بسفدد، ويتسع هناك وعليه رباط يعرف بحارة الأحشيش، وهي قرية آهلة يتصل بها فحص مديد يعرف بفحص أبي شيار"[19].
		"مدينة في المغرب في جهة أصيلة وهي مدينة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة للأول، وهي على نظر واسع كثير الخصب والزرع والضرع وهي تمير(تشبه) بلاد الأندلس"[20].
القصر الكبير (مدينة قصر صنهاجة)	بالقرب من مدينة تشمس في اتجاه الشرق	"وهي على تل، وتحته نهر لكس تدخله المراكب، وتعرف بقصر عبد الكريم وكان من اشياخ كتامة القاطنين هناك فرأس فيهم، واستوطن ذلك الموضع، وكانت فيه آثار قديمة، فبنى فيه دارا سميت قصرا لعدم القصور بتلك الجهات"[21].

شالة	على الساحل الأطلسي تشرف على وادي أبي رقراق من جهة الجنوب	"بسله رباط يرابط فيه المسلمون، وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسله القديمة، وقد خربت، والناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون في وقت، وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة"[22]. "على ميلين من البحر (حوالي 3 كلمترات) وموضعها على ضفة نهر أسمير الذي يتصل الان بمدينة سلا الحديثة (...) وأما شالة القديمة فهي الآن خراب، وبها بقايا بنيان قائم، وهياكل سامية، ويتصل بخرابها عمارات متصلة"[23].
وليلي	بسيط سايس	"وكانت مدينة رومية قديمة بطرف جبل زرهون في الغرب منه، وتسمى الآن تيسرة فنزل بها علي بن إسحاق بن محمد الأوربي، وكانت أوربة آنذك من أعظم قبائل بلاد المغرب (...)"[24].
إيجلي	بالسوس الأقصى	"وقاعدة بلاد السوس مدينة إيجلي، وهي مدينة عظيمة كبيرة قديمة أزلية في سهل من الأرض على النهر الكبير المذكور (...) وصل عقبة بن نافع إلى هذه المدينة عند دخوله إلى بلاد المغرب وافتتحها"[25].
تادلة	وسط المغرب الأقصى	"هي مدينة قديمة فيها آثار للأول، وبنى فيها الملثمون حصنا منيفا، وهو الآن معمور، فيه الأسواق، والجامع"[26].
وجدة	شرق المغرب الأقصى	"مدينة كبيرة مسورة قديمة أزلية، كثيرة البساتين، والجنات والمزدرعات (...)، وعلى مدينة وجدة طارق المار والصادر من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب، وسجلماسة وغيرها"[27].

صفرو	شمال الأطلس المتوسط	"من مدينة فاس إلى مدينة صفريوي مرحلة، وهي مدينة مسورة ذات أنهار وأشجار"[28]. "مدينة صفروي هي مدينة لطيفة قديمة عليها سور، ذات أنهار ومياه جارية ولها جنات كثيرة الفواكه والأعناب"[29].
نفيس	كانت توجد على ضفاف أحد روافد وادي تانسيفت	"وهي تعرف ببلاد النفيس، كثيرة الأنهار، والثمار، ليس في ذلك القطر موضع أطيب منه، ولا أجمل نظرا، وهي قديمة أولية، غزاها عقبة بن نافع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاصر بها الروم، ونصارى البربر، وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها، فلزمهم حتى فتحها وبنى بها مسجدا"[30].

3- مصير المدن الأزلية بعد الفتح الإسلامي:

بعدما تمكن المسلمون من فتح المغرب الأقصى خلال نهاية القرن الأول الهجري/ نهاية ق7م، أصبح ولاية تابعة للدولة الأموية، وتداول على إمرته ولاة عدة أولهم عقبة بن نافع الفهري، وآخرهم عبد الله بن الحبحاب الذي جعل على طنجة عاملا له، اسمه عمر بن عبد الله المرادي، وقد أجمعت المصادر التاريخية على ظلمه وتجبره على البربر، حيث"أساء السيرة، وتعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر وزعم أنهم في يء المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام، فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد"[31]، وقد أدت هذه السياسة التعسفية إلى قيام البربر بثورة عنيفة ضده تزعمها ميسرة المطغري، واتخذت المذهب الخارجي مذهبا دينيا وسياسيا لها، وانتهت بقتل عبد الله المرادي وجلاء الأمويين عن المغرب وذلك سنة 122هـ/740م[32].

وارتباطا بالمجال الحضري دائما، فقد تعامل الولاة الأمويون مع المدن القائمة بنفس طريقة تعامل الأمويون مع الإرث الحضري البيزنطي في الشام، حيث جعلوا عددا كثيرا منها دارا لإمارتهم وقرارا لجندهم.

ومن الناحية التخطيطية اكتفى الأمويون بإدخال المرفق المركزي للمدينة الإسلامية وهو المسجد، الذي أصبح قطب الرحى في بنيتها المعمارية. وبما أن فترة حكم الدولة الأموية للمغرب كانت قصيرة (72هـ-92هـ/692م-711م)، فإنهم لم يحدثوا مدنا جديدة.

لقد دارت رحى معارك الفتح الإسلامي أغلبها في الحواضر، فأول مدينة دخلها عقبة بن نافع الفهري هي **طنجة** التي حاصرها و"استنزل ملكها "يليان" الغماريوهو يومئذ نصراني، فنزل على حكمه بعد أن أعطاه أموالا جليلة (...) فتوجه عقبة نحو مدينة **وليلي** بإزاء جبل زرهون، وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين سبو وورغة (...) فافتتحها عقبة، وغنم وسبى، ثم توجه إلى بلاد درعة والسوس (...) فانتهى إلى بلاد **آسفي** وأدخل قوائم فرسه في البحر، ووقف ساعة ثم قال لأصحابه ارفعوا أيديكم ففعلوا، وقال: اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين؛ وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعا"[33].

ويذكر أن الفاتحين المسلمين عملوا على أسلمة هذه المدن القديمة، حيث تحكي النصوص التاريخية أنه كلما فتحت مدينة وأصبحت تحت سلطتهم، بُنيَ بها مسجدٌ لتعليم الناس مبادئ الدين الجديد، وإقامة الشعائر الدينية.

فمدينة نفيس، التي تقع على أحد روافد وادي تانسيفت، بنى بها عقبة بن نافع الفهري مسجدا سمي في المصادر التاريخية بجامع عقبة سنة 63هـ/683م. يقول البكري واصفا المدينة وعملية فتحها: "هي مدينة قديمة أولية غزاها عقبة بن نافع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاصر بها الروم ونصارى البربر، وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها، فلزمهم حتى فتحها **وبنى بها مسجدا** إلى اليوم"[34].

أما مدينة سبتة فقد وقع فيها ما وقع لمدينة دمشق حيث حولت كنيستها إلى جامع، وفي هذا الصدد يقول نفس الكاتب: "ومدينة سبتة مدينة قديمة سكنها الأول، فيها آثار كثيرة، وكان الماء مجلوبا من نهر قرية أويات على ثلاثة أميال منها، يجري الماء في قناة مع ضفة البحر القبلي الذي يعرف ببحر بسول، **وكان يدخل كنيستها التي هي اليوم جامع سبتة**"[35].

هكذا إذن فطوال الفترة الأموية لم تحدث تغييرات جوهرية في المجال الحضري "فحتى عهد الأدارسة كان المغرب لا يزال يحتفظ بالمدن الرومانية (...)، إلا أنه وبعد قرنين من الاستقرار الإدريسي، سيشهد المغرب تجديدا كليا لطبيعته العمرانية"[36]، حيث ظهرت حواضر مهمة ذات وظائف مختلفة عسكرية، وسياسية، وتجارية، "وجل هذه المدن الجديدة في أصلها ذات شكل إسلامي تميزها كثرة الحصون المحيطة بها، وتعدد مساجدها، لذلك يمكن القول بأن المغرب عرف تطورا عمرانيا خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين[37].

وباستثناء مدينتي طنجة وسبتة، فإن باقي المدن الموروثة خلال هذه الفترة إنما سميت بالمدينة لتاريخها الحضري، وإلا فالطابع العام الذي أصبحت عليه مدن المغرب القديم قد اصطبغ بطابع البداوة، فما إن تمكن الأمازيغ منها بعد جلاء الرومان حتى سادتها الفوضى المعمارية[38]، ودخلتها حياة البداوة وغابت عنها مظاهر الحضارة، ومنها ما هجر عن آخره ولم يعمر إلا عند الحاجة إلى التحصن من الفاتحين المسلمين، كما وقع في مدينة نفيس التي تحصن بها "الروم ونصارى البربر، وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها"[39].

وبخصوص ميل البربر إلى البداوة ومجافاتهم للتحضر يقول ابن خلدون: "والسبب في ذلك أن الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدويا، ولم تستمر فيه الحضارة حتى تستكمل أحوالها (...) فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا إليها أقرب، فلم تكثر مبانيهم، وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو، والصنائع من توابع الحضارة، وإنما تتم المباني بها، فلا بد من الحذق في تعلمها، فلما لم يكن للبربر انتحال لها، لم يكن لهم تشوف إلى المباني، فضلا عن المدن، وأيضا هم أهل عصبيات وأنساب، لا يخلوا عن ذلك جمع منهم، والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو (...)، فلذلك كان عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا، أهل خيام، وظواعن، وقياطين، وكنن في الجبال، وكان عمران بلاد العجم، كله أو أكثره ، قرى وأمصارا ورساتيق [ولايات]"[40].

وهذا ما يمكن استقراؤه من تاريخ البربر حيث ظلوا في صراع دائم مع الأجنبي سواء جاء محتلا أو داعيا لدين جديد، فكانوا يرفضون الخضوع لأي سلطة كيفما كان نوعها، وقد حافظ ذلك على انتماءاتهم العصبية، إذ ظلوا دائما ينتمون إلى ثلاث عصبيات كبرى هي: المصامدة وصنهاجة وزناتة، وقد تفرعت عن كل قبيلة عشائر متعددة، وهذا ما يفسر كذلك صعوبة الفتح الإسلامي للمغرب بالمقارنة مع فتح بلدان المشرق.

بيد أنه بعد تمكن الإسلام في المجتمعات البربرية، انتقلوا من دافعين له إلى متبنين له، باعتباره دينا للجميع عربا وبربرا وعجما. ولما كان الدين الجديد يدعوا إلى المدنية والحضارة الوحدوية، فقد انخرط المغرب الأقصى ضمن مجال العالم الإسلامي دينا وثقافة واقتصادا باستثناء التبعية السياسية التي أوقفتها ثورة الأمازيغ على الأمويين، ودعمتها نشأة الدولة المغربية الإسلامية المستقلة ابتداء من عهد الأدارسة.

وهكذا أصبحنا أمام شبكة حضرية فاق عددها العشرات، حسب كتب المسالك والممالك، تشابهت جلها في الخصائص التخطيطية؛ إذ أدخلت المظهر الإسلامي في مكوناتها، وتصميمها، وطابع الحياة داخلها. وحتى المدن الموريطانية والرومانية الموروثة (المدينة الأزلية) "أخذت تتحول نحو الإسلام ببطء، مما كان له تأثير عمراني على ملامحها وخصائصها من جهة محاولة الاقتراب من أنماط المدن والمستوطنات العربية الإسلامية المشيدة حديثا"[41].

إن مفهوم المدينة الأزلية يُعد نعتاً لازماً للمدن الموروثة عن الحقب السابقة للفتح الإسلامي، كما أكدنا سابقا، والتي استمر وجودها بعد التغيرات الجذرية التي شهدها المغرب الأقصى ابتداء من أواخر القرن الأول الهجري /7م، كما استمدت هذه المدن أزليتها من عمقها التاريخي وإشعاعها الحضري، إضافة إلى موقعها بالنسبة للطرق التجارية والمجال القبلي الذي تنتمي إليه.

لقد ذكرت المصادر التاريخية عدة مدن أزلية قديمة في المغرب الأقصى أبرزها: نكور، ومليلية، وتطوان، وسبتة، وطنجة، وشالة، وتشمس، ووجدة، ووليلي، وتادلا، وإيجلي، ونفيس...، غير أن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: **هل حافظت هذه المدن على تحضرها وجودة معمارها بعد الفتح الإسلامي؟**

الجواب عن هذا السؤال يتطلب متابعة التطورات التي عرفتها هذه المدن بعد الفتح الإسلامي، وقد أفضت بنا هذه المتابعة التاريخية لمصير المدينة الأزلية بين دفات المصادر إلى أنها لم تخرج عن وضعيتين هما: الاستمرارية والتجديد، أو الخراب والاندراس.

وقبل أن نصنف هذه المدن حسب هاتين الوضعيتين نشير إلى أن المغرب منذ منتصف القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلاديين عرف تراجعا كبيرا في الطابع المدني لصالح الطابع البدوي حتى داخل المدن، وذلك طبيعي بحكم أن الوندال والبيزنطيين من بعدهم لم يكن لهم مشروع حضاري كما هو حال سلفهم الرومان[42]، إضافة إلى أن البيزنطيين تحكموا فقط في الشريط الساحلي المتوسطي، واقتصر دورهم على السيطرة العسكرية على البلاد عبر إنشاء قلاع عسكرية تفصل بين داخل المغرب وساحله[43].

هذا ما تؤكده المصادر التاريخية، إذ إن المدن التي كانت قائمة الذات عند الفتح الإسلامي هي المدن الساحلية المتوسطية منها: مدينة نكور، ومليلية، وسبتة، وطنجة، في حين كانت المدن الداخلية خاوية على عروشها أو شبه فارغة من السكان، نستشف ذلك من خلال لجوء بعض القبائل الأمازيغية إلى المدن القديمة من أجل التحصن بداخلها خوفا من الفاتحين؛ كما هو الحال لقبيلة أوربة التي لجأت إلى مدينة وليلي بعد هزيمة البربر سنة 69هـ/689م من طرف جيش المسلمين بقيادة زهير بن قيس البلوي الذي انتصر انتصارا ساحقا على جيش كسيلة والفرنجة، مما جعل البربر يلجؤون إلى القلاع والحصون، وبعد استقرار أوربة بوليلي لم يعد لها ذكر حتى دخلها إدريس بن عبد الله[44]. والأمر نفسه كان قد حدث بمدينة نفيس التي غزاها عقبة بن نافع الفهري، وحاصر بها الروم ونصارى البربر، و"كانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها، فلزمهم حتى فتحها وذلك سنة اثنتان وستين"[45].

إن قراءة دقيقة لمتن هذه النصوص تجعلنا نكون تصورا عن الوضعية التي آلت إليها المدن الداخلية، فالنص التاريخي الأول يشير إلى لجوء البربر إلى القلاع والحصون واستقرار أوربة في مدينة وليلي، وكذلك إشارة البكري لتحصن الروم ونصارى البربر بمدينة نفيس، لحصانتها وسعتها، يجعلنا نقر بحقيقة ظاهرة **الابذعرار** التي ذكرها ابن خلدون في توصيفه لفراغ المدن وخروج الناس منها وتفرقهم في الآفاق[46]، وهي مسألة عادية بالنظر إلى أن استمرار المدن رهين بوجود سلطة زمنية ضامنة للأمن والاستقرار، محركة للحياة الاقتصادية، فمتى غابت هذه السلطة، أصبحت المدن مصدر خوف وعدم طمأنينة، مما يؤدي لا محالة إلى سكنى البادية والانتظام في إطار العصبية الأم كوعاء اجتماعي للحماية والأمن.

وتبعا لما سبق، فإن هذه المدن القديمة منها ما تعرض للتجديد واستمر استغلاله في بداية العصر الوسيط، ومنها ما تعرض للخراب والاندراس وأصبح مهجورا تعوي فيه الذئاب ولا تظهر سوى أطلاله الشاهدة، وسنحاول أن نرصد ذلك انطلاقا من ثنائية الاستمرارية والاندراس.

الاستمرارية

من أبرز المدن التي استمرت مؤدية وظيفتها الحضرية نجد مدينة **سبتة** التي تمثل لسانا قاريا داخل البحر الرومي، إذ يحيط بها البحر من ثلاث جهات، وقد وصفها البكري بأنها: "مدينة قديمة سكنها الأول، وبها آثار بقايا كنايس وحمامات"[47]، وقد استلطفها ابن حوقل وراقه عذوبة مائها، وجمال بساتينها وكثرتها[48].

ويشار إلى أن الفاتحين دخلوا مدينة سبتة صلحا، وعمروها، وجعلوا كنيستها مسجدا جامعا، لكن التجديد الفعلي للمدينة بدأ حينما افتتحها الملك الأموي عبد الرحمان الناصر سنة 319هـ/931م، حيث أصبحت في عهده "مدينة كبيرة مسورة بسور صخر محكم البناء، يبلغ طوله من السور الغربي الذي يشكل المدخل إلى آخر الجزيرة خمسة أميال، ويحتوي السور الغربي على تسعة أبراج مراقبة، والباب الرئيسي في البرج الأوسط، وأمامه سور صغير علوه مترين ونيف يشرف على خندق عريض عميق عليه قنطرة خشبية"[49].

لا يقتصر الأمر على مدينة سبتة، فهناك عدة مدن قديمة جدد رسمها ومعمارها، واستغلت في الاستيطان الحضري والتحصين العسكري، منها مدينة **مليلية** التي جددها عبد الرحمان الناصر بعدما افتتحها سنة 314هـ/926م، و"بنى سورها معقلا لموسى بن أبي العافية"[50].

إضافة إلى **مدينة تشمس** التي وصفها ابن حوقل بأنها: "مدينة لطيفة قديمة أزلية أولية جاهلية، وعليها سور من بناء الأول"[51]، وقد جدد حصنها **و**"أحيى رسمه وأظهره إدريس بن القاسم، واستوطنها المتعيشون من البحر"[52]، ورغم وخامة مائها، ووباء هوائها، حافظت على دورها مرسى رئيسا "منه تشحن المراكب بالزرع"[53].

يذكر أن مدينة وليلي التي كانت مدينة كبيرة في عهد "يوبا الثاني" ثم طوال فترة الاستعمار الروماني للمغرب القديم، بدأت تفقد قوتها وسحر عمارتها بعد ذلك، إلى أن أصبحت مدينة متوسطة حينما دخلها إدريس الأول[54]، ما يؤشر على أن المدن التي ورثها المسلمون كانت في وضعية معمارية هشة، بحيث لم تبق منها إلا الأسوار المبنية بالحجر وبعض المباني الأخرى، فهذه مدينة وليلي التي شهدت تطورا معماريا متقدما زمنيا على باقي مدن المغرب القديم وصلت إلى حالة معمارية متواضعة صارت تنحو تدريجيا نحو الهشاشة، فما بالك بالمدن القديمة المعمار، ومن المعلوم أن إدريس الثاني لما أحس بأنها ضاقت بسكانها ولم تعد صالحة للسكن، قرر أن يبني مدينة جديدة، فبعث وزيره عمير بن مصعب الأزدي يبحث له عن موضع لاختطاطها، "فسار عمير في فحص سايس يطلب ما خرج إليه، حتى وصل إلى العيون التي ينبعث منها نهر فاس، فرأى عيونا كثيرة تزيد على ستين عنصرا، ومياها تطرد في فسيح الأرض، ثم صار مع مسير الوادي حتى وصل موضع فاس، فرجع عمير إلى إدريس، فأعلمه بما وقع عليه من الأرض، وما استحسنه من كثرة مياهها، وطيب تربتها، ورطوبة هوائها، وصحتها واعتدال هوائها (...) وشرع في بناء المدينة"[55].

الخراب والاندراس

تعرضت مجموعة من المدن الأزلية إلى الخراب والاندراس خلال بداية العصر الوسيط، إذ لم تسعف الحالة المتردية لمعمارها في استمرار استغلالها، كما أدت التحولات العميقة التي شهدها المغرب الأقصى إلى فراغها وبوارها.

وعلى العموم، فهناك بعض المدن التي أصبحت خاوية على عروشها، وشكلت بقايا معمارها مصدرا للمواد الأولية في بناء مدن جديدة[56]، والبعض الآخر اندرس تحت ركام من الأنقاض.

لقد كانت السطوح أول ما ينهار، تتبعها الغرف وباقي المكونات، ثم تختفي الشوارع والأزقة بفعل تراكم الأنقاض، وتنتقل تربتها بفعل الرياح، فتصير المدينة كلها تحت الأعشاب والنباتات الطفيلية، كما تتصدع الأسوار وتتفتق إلى قطع آيلة للسقوط إلى أن تزول نهائيا، وسنة بعد أخرى يتراكم الذبال والتربة النباتية فوق الأنقاض، فلا تبقى ظاهرة سوى بعض العلامات الدالة على وجود مدينة مدفونة.[57]

هذه حالة كثير من المدن التي كان لها ذكر واسع في التاريخ القديم، واستمرت أطلالا خلال فترة انتشار الإسلام في المغرب الأقصى، وأحسنها حالا ما بقي صالحا للسكن مدة قصيرة من الزمن إلى أن ماتت موتتها الطبيعية المنتظرة.

وقد ذكرت المصادر التاريخية مدن أزلية عدة اندرست وبنيت فوقها مدن جديدة حافظت على الاسم القديم أو أخذت اسما جديدا، فمدينة **طنجة** مثلا وصفها ابن حوقل خلال منتصف القرن الرابع الهجري بكونها "مدينة أزلية آثارها بينة، وأبنيتها بالحجارة قائمة على وجه البحر، سكنها أهلها قديما في صدر الإسلام، ثم استحدثوا لهم مدينة مسيرة ميل منها على ظهر جبل"[58]، لكن في عهد البكري خلال القرن الخامس الهجري /11م استبحر عمرانها حتى "أصبحت العمارة فوق مدينة طنجة القديمة التي غلب عليها الرمل"[59]، وتكونت طبقة أرضية مستوية بفعل تحلل مكونات البناء التي تتركب جلها من الحجارة الطبيعية والتراب، ويذكر أن مدينة طنجة الأزلية بعدما استوت أرضا كان المنقبون على الذهب "يحفرون خرايبها، ويعثرون على أصناف من الجوهر"[60].

أما مدينة **أصيلا** فقد لحقها ما لحق طنجة من اندراس وإعادة البناء، حيث ينقل ابن عذاري المراكشي عن كتاب "المسالك والممالك" لمحمد بن يوسف القروي قوله: "ومن المدن القديمة على ساحل بحر الغرب أصيلا، وهي في سهل من الأرض، كانت مدينة للأول ثم تغلب عليها البحر، ثم بنيت بعد ذلك"[61]، وما يؤكد تخريب الأمواج لعمارتها وصف ابن حوقل لها بأنها: "متعلقة على رأس جرف خارج من البحر المحيط إلى أرض المغرب، وبعضها على البحر المحيط"[62].

غير أن هناك أخبارا أخرى تتحدث عن كون "المجوس" هم سبب خرابها، حيث كانوا ينزلون مرساها ويخربون ما قدروا منها فيجتمع البربر فيحاربونهم، فكانوا معهم على ذلك حتى خلت مع ما كان بين أهل تلك البلاد من الفتن[63]، وسبب تخريبهم للمدينة راجع للتنقيب عن الذهب، كما تحكي القصة التي تناقلتها المصادر التاريخية، والتي ذكر فيها أن المجوس جاؤوا إلى موضعها(أصيلا) وبدأوا في الحفر، فهب البربر لمقاتلتهم، فأقنعوهم أنهم ما جاؤوا للقتال ولكن من أجل استخراج الكنوز المختلفة، ووعدوهم بالقسمة معهم بعد استخراجها، ثم باشروا عملية الحفر حتى أصابوا دخنا أصفرا، فظن البربر أنه الذهب، فأغاروا عليهم فهرب المجوس[64]وندم البربر على فعلتهم وذلك سنة 229هـ/843م[65].

يتبين من خلال البحث عن الذهب في خرايب طنجة وأصيلا أن المدينتين كان لهما شأن كبير في الحقبة السابقة للفتح الإسلامي، خاصة وأننا نعلم أن الحواضر الشمالية من نكور إلى طنجة ثم إلى أصيلا ظلت الدول المتعاقبة على حكم المغرب القديم توليها اهتماما بالغا، وتعمل على ترسيخ نفوذها داخلها، بما يعنيه ذلك من استمرار العمارة والعمران، غير أن الفراغ السياسي السابق للفترة الإسلامية أدى إلى ترهل بنيانها، وبوار عمارتها، لكن جودة الموقع أدت إلى إحياء مدن جديدة فوقها أو بجوارها.

ومن المدن التي أصبحت خرابا خلال بداية العصر الوسيط كذلك ولم تعمر إلا في أواخره؛ مدينة شالة التي لم يبق بها شيء معمور حيث "خربت، والناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها"[66]، ورغم هذا الخراب الذي أصابها فقد بقيت هياكلها المعمارية قائمة تقاوم عاديات الزمن، كما أشار إلى ذلك الشريف الإدريسي خلال القرن السادس الهجري/8م، حيث قال: "وأما شالة القديمة فهي الآن خراب، وبها بقايا بنيان قائم وهياكل سامية"[67].

3-خريطة المدن الأزلية

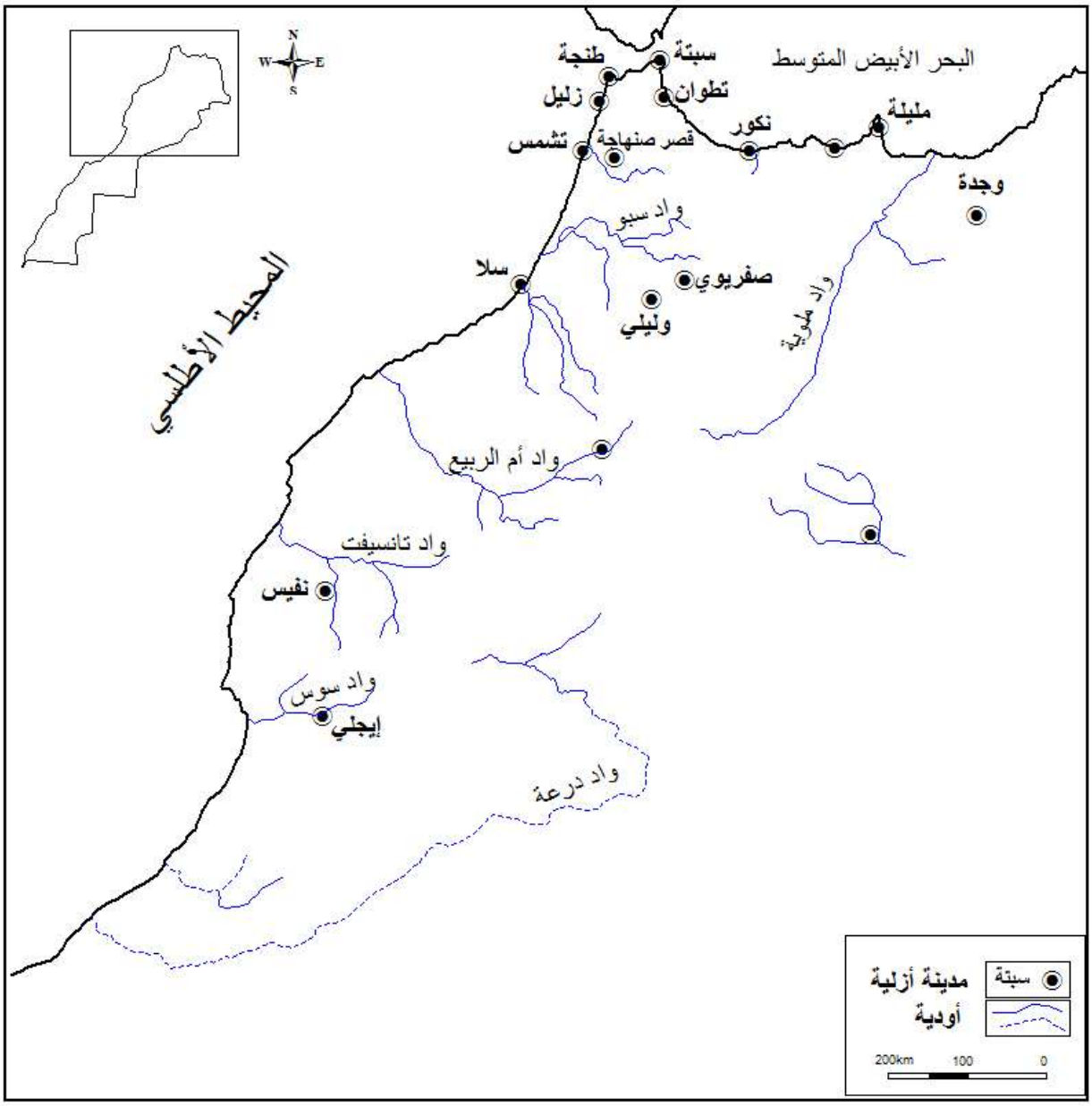

المصدر: رسمت من طرف الكاتب

4- إشكالية التراكم والقطيعة في التخطيط:

نعني بالتراكم في تخطيط المدن؛ استمرار التأثير المعماري للحاضرة القديمة في مدن العصر الوسيط، ونعني بالقطيعة عكس ذلك، وهي إشكالية أسالت مداد عدد من الباحثين المغاربة والأجانب، وانقسموا من خلالها إلى ثلاث مجموعات: مجموعة ترى بأن المدينة المغربية الوسيطة لا علاقة لها من حيث التخطيط بالحقب السابقة[68]؛ إذ إنها إنتاج فريد وضع قطيعة مع المدن القديمة، ومجموعة أخرى ترى بأن المدينة الإسلامية "منحدرة من المدينة الرومانية"[69]، بل منهم من اعتبرها نسخة مشوهة ومفككة للمدينة الرومانية[70]. وبالمقابل هناك من يرى أن المدينة الإسلامية في المغرب الأقصى استفادت من النماذج الحضارية الموروثة لكنها شكلت لنفسها هوية فريدة خاصة بها[71].

يبدو أن المسلمين في المغرب الأقصى تأثروا بأنماط بناء المدن في الحضارات السابقة خاصة الرومان[72]، لكنهم أبدعوا مدنا خاصة بهم تستجيب لمتطلباتهم الدينية، والأمنية، والاقتصادية، والاجتماعية، "حيث إن الدين الإسلامي الذي كان موجها لجميع مظاهر الحياة عمل على تشكيل طراز من الحواضر ذات بنية نمطية عمت كافة العالم الإسلامي، كما كان الشأن بالنسبة للمدينة الرومانية في كل بلاد الإمبراطورية"[73].

صحيح أن مقارنة الشكل المورفولوجي النهائي للمدينة المغربية الوسيطية مع نظيرتها المورية أو الرومانية يفضي إلى القول بأنها فريدة في تخطيطها وشكلها، لكن الدراسة التفصيلية للعناصر المعمارية وهندستها وجماليتها تجعلنا نقر بمسألة التأثر بالأنماط السابقة، خاصة التأثير الروماني الذي امتد طويلا في المغرب القديم، و"مازلنا نلاحظه حتى اليوم متجليا في الفسيفساء، والزليج، وهندسة بناء الحمامات، والمنازل، وخاصة هندسة القصور المعروفة في المناطق البربرية فهي لا تختلف عن هندسة الكاستروم[74] الروماني castrum بأبراجه الأربعة "[75].

إن مسألة التأثير والتأثر سنة كونية عرفتها جميع الحضارات، فالمدينة الرومانية نفسها أخذت مجموعة من عناصرها التخطيطية من المدن الميزوبوطامية والإغريقية[76]، ويظهر ذلك في تخطيط الشوارع، والأحياء وبناء المسارح، والحمامات، والملاعب،غير أن المدينة الرومانية استمدت تميزها من خلال تطوير هذه العناصر وفق القوة المادية والثقافة السائدة والأجواء السياسية التي عرفتها كل المناطق التابعة للإمبراطورية، فوجدنا مدنا رومانية تميزت بمتانة تحصيناتها الدفاعية، وأخرى تميزت بعظمة مرافقها المدنية.

هناك مسألة أخرى ينبغي الانتباه إليها في معالجة تخطيط المدن تتمثل في الاستعمال الحذر للتحقيب التاريخي المعروف، إذ إن تخطيط المدينة عمل تراكمي ممتد في الزمان والمكان يصعب أن نعالجه بطريقة ميكانيكية، وهو المنزلق الذي يمكن السقوط فيه إذا ما اتبعنا التحقيب التقليدي الذي يجعل التاريخ القديم في المغرب ينتهي بالجلاء الروماني ثم البيزنطي عن أراضيه، ليبدأ بعد ذلك العصر الوسيط مع الفتح الإسلامي.

قد يصدق هذا التحقيب على التاريخ السياسي، لكن اعتماده بطريقة آلية في مقاربة موضوع تخطيط المدينة المغربية سيجعل مخرجات الدراسة تبتعد عن العلمية، بكل بساطة؛ لأن تشييد المدن، وتخطيطها، وبناء مرافقها المتعددة، وأسوارها، وتحصيناتها المختلفة، خاضع لما يمكن أن نصطلح عليه بدينامية التراكم الحقبي.

فالمسلمون حينما دخلوا إلى المغرب الأقصى لم يقوموا بتدمير المدن القائمة الموروثة عن الحقب السابقة، بل استأنسوا بها، وقاموا بأسلمتها عن طريق إدخال مرافق معينة داخل بنيتها التخطيطية كان أبرزها المسجد الجامع[77]. فإلى حدود منتصف القرن الثاني الهجري/8م لم تطرأ تغيرات جوهرية في الشبكة الحضرية الموروثة؛ إذ ظلت المدينة الأزلية مستمرة في أداء أدوارها الحضرية خاصة المدن التي شهدت تراكما عمرانيا خلال مرحلة الاحتلال الروماني، ولم يدخل المغرب مرحلة إحداث مدن جديدة إلا بعد ظهور إمارات محلية ارتكزت في عمرانها على مدن عواصم، وبعد قرنين من الاستقرار الإدريسي شهد المغرب تجديدا كليا لطبيعته العمرانية[78].

لا يقتصر الأمر فقط على المغرب، بل حتى في المشرق عمل الأمويون على بعث المدن القديمة بما يتناسب ورؤيتهم للعمارة والعمران، ومن جملة ذلك إعادة تخطيطهم لمدينة دمشق القديمة وجعلها عاصمة لدولتهم الكبرى[79]، ويذكر أنهم حولوا كنيستها إلى جامع كبير لازال يطلق عليه إلى اليوم الجامع الأموي[80]، الذي شكل مرجعية معمارية لمساجد الغرب الإسلامي، وهو نفس العمل الذي فعله أمراؤهم في المغرب حيث حولوا كنيسة مدينة سبتة إلى مسجد جامع.

خاتمة:

إن التحولات التاريخية التي عرفها المغرب بعد الفتح الإسلامي منذ أواخر القرن 7 السابع الميلادي مرورا بالقرون الخمسة الأولى أي قبل ظهور الدولة الكبرى في عهد المرابطين، كان لها تأثير كبير على الرؤية العمرانية وشكل تخطيط المدينة، وذلك لأن المدينة تشكل المجال الترابي للتداول السياسي والتعبير الحضاري العمراني. ومن خلال ما سبق فالمغرب المسلم ورث شبكة حضرية متعددة المدن من العهد القديم، تراوح مصيرها بين الاندراس والاستمرارية، فمن المدن التي اندرست لصعوبة استغلالها بسبب خرابها أو هشاشتها نجد مدينة طنجة ومدينة زليل (أصيلا) وشالة... ومن المدن التي استمرت مؤدية دورها العمراني الحضري نجد مدينة سبتة ومدينة تشمس (ليكسوس) ومدينة ميليلية إضافة إلى وليلي التي استمرت معمورة في بداية العهد الإدريسي ثم سرعان ما هجرت بعد بناء مدينة فاس، وقد تعامل العقل المسلم مع الإرث المعماري القديم بمنطق انتفاعي بعيد عن التعصب الديني؛ حيث استمرت الحياة الحضرية في المدن القائمة، وتمت إعادة تخطيطها بما ينسجم مع الثقافة الجديدة، وذلك بتجديد الهياكل الحضرية وبناء المساجد وتعزيز الأسوار وما إلى ذلك مما تفرضه الوضعية المعمارية وتوجيهات السياسية الشرعية، وهكذا بدأت تتشكل مرجعية جديدة في التخطيط الحضري كان لها وقع كبير على عملية بناء مدن جديدة.

الهوامش:

[1]–أحمد ليمان، «إشكالية التحقيب في تاريخ المغرب القديم»، محاضرة ألقيت برحاب المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية سنة 2009، لم تنشر بعد.

[2]–أحمد ليمان، مرجع سابق.

[3]– محمد العيوض، مدن المغرب القديم من خلال إشارات النصوص ونتائج البحث الأثري، مطبعة الرباط نت، الرباط، 2011، ص35.

[4]– عباس الجراري، «وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي»، مجلة المناهل، إصدار وزارة القافة المغربية، الرباط، العدد 4، 1977م، ص75.

[5]–أحمد ليمان، مرجع سابق.

[6]- Courtouis (Christien), Les Vandales et l'Afrique, Arts et Métiers Graphique, Paris, 1995, p159-162

[7]–عباس الجراري، مرجع سابق، ص76.

[8]–أحمد ليمان، مرجع سابق.

[9]–أحمد ليمان، مرجع سابق.

[10]–محمد نصيح، «محددات نشأة المدينة وتطورها بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط» ضمن أعمال الندوة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الانسانية ابن مسيك بالدار البيضاء، في موضوع: المدينة في تاريخ المغرب العربي، نونبر 1988م، ص ص 79–80.

[11]–نفسه، ص80.

[12]- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، 1984، ص577.

[13]– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص89.

[14]– نفسه، ص107.البكري، المصدر السابق، ص107

[15]– البكري، مصدر سابق، ص ص103–104.

[16]– ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ص80.

[17]– البكري، مصدر سابق، ص109.

[18]– ابن حوقل، مصدر سابق، ص80.

[19]– البكري، مصدر سابق، ص114.

[20]– الحميري، مصدر سابق، ص141.

[21]– مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشره وعلق عليه سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، بدون تاريخ، ص189.

[22]– ابن حوقل، مصدر سابق، ص82.

[23]–الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، تحقيق مجموعة من الباحثين، تحت إشراف المعهد الجامعي للدراسات الشرقية بنابولي (1970–1984)، نشر مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دون تاريخ، ج 1، ص239.

[24]– مجهول، الاستبصار...، ص194.

[25]–نفسه، ص212.

[26]– نفسه، ص200.

[27]– نفسه، ص177.

[28]– البكري، مصدر سابق، ص147.

[29]– مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص193.

[30]– البكري، مصدر سابق، ص160.

[31]– ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983، ص ص51–52

[32]– نفسه، ص 52.

[33]– أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، حققه وعلق عليه، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ج 1، ص138.

[34]– البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص160.

[35]– مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص137.

[36]–الحسين بولقطيب، «النشاط الاقتصادي لبعض حواضر المغرب الإسلامي أواخر القرن الخامس وبداية السادس الهجريين»، ضمن أشغال الندوة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الانسانية ابن مسيك بالدار البيضاء، في موضوع: المدينة في تاريخ المغرب العربي، من 24 إلى 26 نونبر 1988، ص177–178.

[37]– نفسه.

[38]– من بين المدن التي شهدت ظاهرة فوضى البنيان مدينة وليلي، انظر محمد العيوض، مرجع سابق، ص131.

[39]– البكري، مصدر سابق، ص160

[40]– ابن خلدون، المقدمة، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، 2000، ص331.

[41]–عبد الفتاح عاشور، تخطيط المدن في المغرب العربي: دراسة تراثية حتى مطلع القرن الرابع الهجري، دار دجلة، بغداد، الطبعة الأولى، 2010م، ص27.

[42]–محمد نصيح، «محددات نشأة المدينة وتطورها بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط»، ضمن أشغال الندوة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الانسانية ابن مسيك بالدار البيضاء، في موضوع: المدينة في تاريخ المغرب العربي، نونبر 1988م، ص 84.

[43]–الحبيب الجنحاني، المجتمع الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مجلة عالم المعرفة، الكويت العدد 319، 2005، ص79.

[44]– الناصري، مصدر سابق، ص147.

[45]– البكري، مصدر سابق، ص160.

[46]– ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص139.

[47]– البكري، مصدر سابق، ص103

[48]– ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للنشر والتوزيع، بيروت، 1996م، ص79

[49]– البكري، مصدر سابق، ص104.

[50]– الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، 1984، ص545.

[51]– ابن حوقل، مصدر سابق، ص80.

[52]– مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص189.

[53]– ابن أبي زرع، ص189.

[54]– نفسه، ص6.

[55]– ابن أبي زرع، ص14–15.

[56]–حسن حافظي علوي، «مواد البناء ببلاد الغرب الإسلامي من خلال كتاب "الإعلان بأحكام البنيان" لابن الرامي»، ضمن المعمار المبني بالتراب في حوض البحر الأبيض المتوسط، تنسيق محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 1999، ص 67.

[57]–ليوبولدو طريس بالباس، الحواضر الأندلسية، ترجمة د محمد يعلى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2007 م، ج1، ص82.

[58]– ابن حوقل، مصدر سابق، ص80.

[59]– البكري، مصدر سابق، ص109.

[60]– الحميري، مصدر سابق، ص295.

[61]– ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983، ج 1، ص232.

[62]– ابن حوقل، مصدر سابق، ص80.

[63]– الحميري، مصدر سابق، ص42.

[64]– قوم من إشبيلية

[65]– البكري، مصدر سابق، ص ص 111–112.

[66]– ابن حوقل، مصدر سابق، ص82.

[67]– الإدريسي، نزهة...، مصدر سابق، ص239.

[68]– انظر على سبيل المثال: محمد فتحة، «تنظيم المجال الحضري داخل المدينة المغربية في نهاية العصر الوسيط»، ضمن وقفات في تاريخ المغرب، دراسة مهداة إلى الأستاذ ابراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 27، الطبعة الأولى، 2001، ص 64. حيث يقول: "لا يظهر أن مدن المغرب الأقصى الإسلامية قد استلهمت تصاميم المدن السابقة للعهد الإسلامي، بالرغم من استقرار بعضها على أنقاضها أو بجوارها. . . ".

[69]– طريس بالباس، مرجع سابق، ص218.

[70]– تفاصيل أكثر حول المستشرقين أصحاب هذه النظرية، انظر: عبد الجبار ناجي، «المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية: دراسة نقدية معاصرة»، مجلة المورد، إصدار وزارة الثقافة والاعلام العراقية، دار الجاحظ، المجلد 9، عدد4، 1980م، ص ص148–150.

[71]- Marcais (Georges) et autres, In Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman, Imprimerie officielle، Alger،1957، p 219.

[72]– عبد الفتاح عاشور، مرجع سابق، ص 27.

[73]–طريس بالباس، المرجع السابق، ص44.

[74]– الكاستروم هو اسم أطلقه الرومان على الحصون التي تقع في أماكن مرتفعة.

[75]– عباس الجراري، مرجع سابق، ص175.

[76]–عبد الفتاح عاشور، مرجع سابق، ص29.

[77]– حينما فتح عقبة بن نافع الفهري مدينة نفيس، بنى بها مسجدا اشتهر باسم "جامع عقبة"، انظر: البكري، مصدر سابق، ص 160.
وحينما أصبحت سبتة تحت السلطة الأموية، حولوا كنيستها إلى جامع، انظر: مجهول، الاستبصار. . ، مصدر سابق، ص137.

[78]–الحسين بولقطيب، مرجع سابق، ص177.

[79]–محمد صبري، «تخطيط وعمارة المدينة الإسلامية: مدينة دمشق القديمة»، مجلة كلية التربية، واسط، العدد 11، 2009، ص14.

[80]–ابن كثير القرشي،البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1998، ج 12، ص604.